

رواية

# الرصيف الثاني

مبارك برك بن جوهر

# الرصيف الثاني

رواية

مبارك برك بن جوهر

© جميع الحقوق محفوظة.

عنوان الكتاب: الرصيف الثاني.

تأليف: مبارك برك بن جوهر.

(what+967734310840) (insta: mub_jo)

نوع الكتاب: رواية.

رسمة لوحة الغلاف: سميرة الكولي. (insta: samira_alkoli)

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي: الحَذَقَة لخدمات ما قبل الطباعة.

(whats:+967779284583) (insta: al_hadaqa)

الطبعة الأولى: يوليو 2025م.

رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتب بحضرموت: (2025/341)

عدد الصفحات: 90صفحة.

لا يسمح بنشر محتوى هذا الكتاب بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني فقط مع تضمين وسم: (#الرصيف_الثاني)

ولا يجوز اقتصاص أي جزء من هذا الكتاب بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة المؤلف.

# الإهداء

إلى ذلك الجندي الذي وجد نفسه فجأة في السرية الخامسة.

"ألم ترَ أن المسك لا شيء مثله ** وأن بياض الملح حمل بدرهم"

أن تكون مختلفًا؛ فهذا يعني أن تكون هامشًا.

# مدخل

أشعر باشمئزاز عارم كلما سمعت أحدهم يناديني بلوني الذي حصلت عليه من أبي الوغد، إنه وغدٌ حقيقي إذ لم يكن لائقًا بالمشاعر الصادقة التي سكبتها عليه أمي المسكينة.

الجميع هنا داخل المعسكر يعتبرونني مخلوقًا غريبًا منبوذًا لا يستحق الاحترام، الاحترام!؟ ما هذه الكلمات الغريبة التي باتت تتردد على لساني منذ جلوسي إلى ذلك الشاب العجيب.

لا أعتقد أني على ما يرام، ويجب عليَّ الابتعاد عنه والحذر ما أمكنني؛ فلو بقيت أجلس إليه وأستمع إلى طلاسمه تلك -التي لا أفهم منها شيئًا- سأصاب بالجنون.

لكن لماذا أحس كأنها تخاطب شيئًا مخبوءً بداخلي، يجب عليك التوقف عن هذا التفكير يا إدريس فإن العقل عدو لدودٌ، والانجراف خلفه لا يأتي بخير، خير؟! وهذه أيضًا من كلمات ذلك الشاب.

## (1)

المدينة تلتحف الليل الضَجِر، والجدران توشك على الصراخ من السأم، والأرض منهكة من كثرة الأحذية التي عانقتها طوال اليوم، كأن الجمادات تهمس لثوبي الأثير وتناجيه عشقًا ودفئا؛ فالغرباء أنسباء في الجغرافيا الغريبة. كل شيء يخبر عن قصة انكسرت زجاجتها في روحه الضبابية التي ترجو أن تنقشع سحابتها أو تمطر فيخف عنها بعض ما تجد.

الوحل يكسو فراشي المتكون من قطعة كرتونية طولية لا تكفي سوى لفصل نصفي العلوي عن الأرض، أما النصف الأسفل فقد اعتاد ملمس الإسمنت الخشن وصار شديد التعلق به، البرد القارس جعل الأشياء ترتعش من حولي عداي، الظلام يكسو المكان بجلبابه العتيق الذي لا يكدره سوى مشرط البرق بين الفينة والأخرى، كأنه لص ماهر يختلس شيئًا من كرمة الليل اليانعة.

هكذا تبدو المدينة في كل مرة بعد هطول المطر، كنت أتضجر من حدوث ذلك سابقًا وتعتريني حالة سخط عارمة كوني لا أملك ما يقيني البرد ولا الريح ثم إني أتقزز من وصول الماء إلى جسمي؛ فهو يفقدني هذه العوالق الطيبة التي تربطني بها ذكريات لا تنسى، لكني مع مرور الوقت اعتدت الأمر ورأيت أن بإمكاني صناعة ذكريات أخرى متى ما أردت.

تغمرني نسائم جمادى الأولى التي تعبق منها رائحة الضياع والغربة، أهيم بهذه الأجواء؛ فهي تفصلني عن البشر وتنبت لي أجنحة وريشًا يحملني إلى الجنة وقد حظيت بلون البشرة الذي لطالما تمنيته حتى لا أكون أقل جمالاً وكمالاً من الآخرين، ربما أصير في يومٍ ما غُرابًا قادرًا على التحليق بعيد عن هذا المكان، أرجو أن تتحقق هذه الأمنية وأصير إلى هيئة أكثر طائر يشبه آمالي.

الليل رحيم للغاية فهو يجعلنا سواسية خاصة عندما يغيب التيار الكهربائي بالساعات الطوال، لا أحد يختلف عن الآخر، هو وحده يحتملني لكنه لا يرانا؛ ربما هذا ما يجعلنا متساوين، أشعر بالاتزان

النفسي في تلك اللحظات التي لا تمزقني فيها نظرات المارَّة؛ كم أتمنى أن يبقى الليل أبديًّا على الدنيا كلها، أريد ألا أخسر شعور السكينة الذي يملؤني الآن، أريد أن أحظى بالسلام فقط.

ساعة المدينة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، ها هو ذا يوم عمل جديد ينتهي بفوضاه وثقله، أحتاج الذهاب إلى قائدي لأملي عليه تقريري المعتاد قبل العودة وافتراش بقايا هذا الكرتون الحبيب والخلود إلى النوم، ستكون الطريق المؤدية إلى مقر القائد في المعسكر مليئة بالمتعة التي أحظى بها كل ليلة قبل النوم، أشعر أني محظوظ جدًا بما أحصل عليه منهم؛ فهم كرماء للغاية معي، أرجو أن أحصل على ضعف ما نلته البارحة!

نهضت بصعوبة شديدة بسبب وزني الزائد، كانت الكلاب حينها تنبح بشراسة كأنما توشك على مهاجمة شخص ما، لم ألقِ لها بالاً فأنا معها على وفاق ولا أخشى جانبها، من الجيد أحيانًا أن تكون صديقًا للحيوانات؛ لأنها تحفظ المعروف وتصون العيش والملح والحُب بخلاف معظم البشر، وهي أيضًا لا تتعامل مع بني جنسها

بناء على اللون والعرق، لا يجعلني أمتنع عن تمني التحول إلى حيوان مثلها هو تسلطها على الضعيف! مهلاً أليس البشر يفعلون ذلك أيضًا؟! لا أدري لماذا أشغل تفكيري بهذه الأمور.

مشيت طريقي المظلم المعتاد، كنت أتلفت في جميع الجهات حتى لا يراني أحد وأنا أتجه نحو الجهة الخلفية من المعسكر، أرجو أن يكون قائد مناوبة الحراسة غليظ القلب مثل صاحب الليلة الماضية حتى أحظى ببعض الضرب اللذيذ قبل تأدية واجبي وإبلاغ القائد بالتقرير. كم أكره ذلك المُساعد الذي كان يشرف على حراسة يوم الجمعة! لم يسمح لأحد بأن يضربني أو يشتمني حتى، يا له من مقرف! ليته ينتقل عن هذا المعسكر إلى مكان يليق ببائس مثله!

يبدو أن حظي لم يكن جيدًا الليلة فقد وجدت المساعد نفسه الذي لا أطيقه متواجدًا عند حراسة البوابة الخلفية، طلب منهم أن يحضروا لي بعض الطعام الذي فضل عن حاجتهم وقدموه لي، لا أنكر أني كنت جائعًا وتناولته بشراهة، لكن أملي خاب عندما لم أحظَ بما

تمنيته، كانت ابتسامته لي أثناء أكلي بمثابة سُمَّ زُعاف لا بد لي من تناوله، يا للقدر البائس الذي جمعني به.

واصلت طريقي والخيبة تكسوني من رأسي حتى أخمص قدمي، غير أني كنت أعوِّل على مزاج قائدي المتقلب وتمنيت أن يكون في أوج غضبه وأكون أنا متنفسه الذي سيفرغ غضبه عليَّ، دعوت في سري وأنا أتجه إلى مكان جلوسه أمام مكتبه في الجهة الشرقية، إنه لا يبدو على ما يرام، ها هو ذا يتحرك جيئة وذهابًا كأن أمر عظيمًا أهمه، لقد نلت مرادك يا إدريس وستحظى بفاكهتك التي تمنيت تناوله منذ مغادرة الرصيف.

يا له من رجل عظيم! يمتلك هالة عجيبة تجعل الآخرين يهابونه ويحبونه في الوقت نفسه، ربما أنا من أراه كذلك فقط، لكم تمنيت أن أصير في يوم ما مثله، لكن كيف يكون ذلك ولوني يقف حجر عثرة في طريق وصولي، لست ألومهم في ذلك؛ فلوني يذكرهم بالموت، أي ذنب اقترفته قبل مجئي إلى الدنيا حتى أعاقب بأن أكون أبيض

البشرة! إني أبصق ألف مرة كلما ذكرت هذه الكلمة، ربما لو كنت شفافًا لا أبيض ولا أسود لما احتاج أحد لرفضي أو قبولي.

انتبه لحضوري فتوقف عن الحركة وبقي محدقًا فيَّ إلى أن صرت على بعد أمتار قليلة منه، أمرني بالتوقف ثم وضع يده على أنفه وأشار إليَّ بالأخرى بأن أقول كل ما لدي بسرعة؛ إنها يفعل ذلك معي في كل مرة آتي إليه كأنه يتمنى في أعماقه ألا يراني أبدًا، لماذا يتعامل معي بهذه الطريقة الغريبة؟ أيتقزز من رائحتي الندية؟ أليست رائحة بوله وبول القادة الآخرين الذين كانوا يسكبونه عليَّ منذ سنواتي الأولى في هذا المعسكر؟ ألم يكونوا يجمعونه في الدلاء بالأيام ثم يجبروني على الاغتسال به؟ هاقد اعتدت على هذه الرائحة التي تجعلني أشعر بأني أمتلك شيئًا منهم! فلماذا إذن ينفر من شيء خرج منه في يوم ما؟ يا لغرابة هؤلاء البشر! إني حقًا لا أفهمهم!

أخبرته بما يتحدث به رواد المقهى الشعبي الذي أجلس قبالته عن نقمتهم على تصرفات العسكر مع المواطنين وعن رغبتهم الملحة في تغيير هذا الوضع بالعنف، هم في الحقيقة لم يقولوا بالعنف لكني

رغبت بأن أثيره حتى أنال ما جئت من أجله، وصفتهم له وصفًا دقيقًا كأني رسمتهم له، كنت ألمح النار المشتعلة في عينيه والحقد الذي يفوح منه، أسعدني ذلك بدرجة لا توصف، غير أنه لم يتحرك نحوي ولو مقدار شعره. تأتي الرياح بما لم تشتهِ سفني، والواضح أني سأعود بخُفَيْ حُنين.

- هل تريد مني شيئًا آخر؟

سألته بعد انتهائي من تقريري؛ فأجابني بوجه متبلد:

- اغرب عن وجهي أيها القبيح.

هززت رأسي بطاعة وانصرفت، هذه ليلة من الليالي القليلة التي أنام فيها مقهورًا تعيسًا، أكان صعبًا عليهم منحي الهبة الوحيدة التي تجعلني سعيدًا؟ أيستكثرون عليَّ النوم بهناء؟ أيُّ استعلاء هذا الذي يملؤهم ويجعلهم يتعاملون معي بهذه الطريقة؟!

## (2)

شبحُ النهار البغيض أقبل من جديد ليذكرني بلون بشرتي الذي جعلني ناقصًا في نظر الجميع! أقبل ليضرَّمَ كير حقدي الدفين على كل هؤلاء الذين يمرون بي في هذا الرصيف، وكل الذين يرمقوني بنظرات الازدراء والامتهان! إن شعور الدونية ينهشني في كل يوم أكثر من سابقه! ألعن حظي آلاف المرات على الخطأ الذي تسبب في إذاقتي سوء العذاب، لا أقصد العذاب الجسدي فقد صرت أستلذ به وأطلبه باستمرار وإنما ما ينخر داخلي كما تفعل الأرضة في العود.

أمتلك ذاكرة عظيمة في حفظ الأحداث والأحاديث؛ لذا كنت أكثر العيون حظوة لدى القائد، ولم أخيِّب أمله مطلقًا من قبل، فأنا أسعى جاهدًا لمكافأته على صنيعه معي منذ تخلي أمي عني حتى كبرت واشتد عودي وصرت بهذا الهيئة، لا أنكر أنه كان قاسيًا للغاية في تعامله معي، لكني كنت أحب ذلك منه دائمًا، بل إني أتمنى أن أحصل على ركلة أو لكمة أو صفعة أو بصقة على الأقل كلما رأيته؛ ذلك يشعرني أني ما زلت حيًّا لم أمت بعد.

من الجيد أن تقاريري لا تذهب هباء، بل تكون دائمًا في حيز التنفيذ؛ وما حدث أمامي الآن يثبت ذلك، قتل أولئك الثلاثة بهذه الطريقة الساحرة يجعلني أشعر بالرضا والسكينة؛ فأنا أخدم هذه البلاد من خلال المساعدة في التخلص من كل شخص يفكر بالإساءة إلى الحكومة أو العسكر! لا يجب أن أدع فرصة لمن تسول له نفسه بأن يثور أو يرفض أو يعترض على أي رمز مقدس؛ القيادة خط أحمر لا يسمح بالاقتراب منه فضلاً عن تجاوزه.

أسلوب قتلهم عصري وفريد من نوعه، لم يخطر لي أن يفكر القائد بهكذا قتلة؛ سائق دراجة نارية ملثَّم يطلق عليهم النار في وضح النهار على مرأى ومسمع من الجميع، يا للجمال والروعة! لو خططت لذلك ألف سنة لما جاء بهذا الإتقان، ثم إن حدوث ذلك أمام الناس دليل قاطع على أنهم لا يجيدون سوى الثرثرة فقط، لكن يجب أن نقف لهم بالمرصاد، حتى الكلام غير مسموح لهم إذا كان يمس القيادة بأي سوء.

رؤية الهلع في عيون الآخرين، وفرارهم في كل اتجاه، جفاف الدماء من وجوههم، كلها جوائز أحصل عليها نظير ولائي ووطنيتي، صحيح أني لا أملك لون بشرتهم الرائع لكني أعتز بالمجهودات الجليلة التي أقوم بها، لو لم أكن أحسن القيام بالمهمة الموكلة إليَّ لانفرط عقد الوطن، ونبتت الفتنة في نفوس الشعب، وساءت الأحوال؛ وجودي وجودتي هما صاحبا الفضل في قتل أي محاولة مقاومة قبل ولادتها، وإطفاء أي نار معادية وهي ما زالت شرارة.

لم تمض سوى ساعة واحدة حتى عادت المدينة على حركتها الطبيعية كأن لم يحدث شيئًا منذ لحظات، لكني على ثقة تامة بأنهم يتسألون الآن عن سبب مقتل أولئك الثلاثة، وعندما يكتشفون الأمر سيخيطون أفواههم لمدة بعيدة، خاصة الذين شهدوا الوقعة ولم تُروَ لهم. ربما أستريح في هذه المدة، وربما توكل إليَّ مهمة مراقبة مقهى أو مسجد أو رصيف آخر.

أقبل نحوي شابان يبدو الطيش والحمق واضحًا في ملامحهما، لا أظن أنهما ممن شهدوا ما حدث؛ فلم ألمحهما مع من كان موجودًا،

أرى الخبث يقدح من عيونهما، لا أعتقد أنهما يقصداني، كيف ذلك وهما ينظران نحوي مباشرة؟! مؤكد أنهما ينويان بي شرًا، هذا جيد فقد اشتقت كثيرًا للضرب، وربما يفعلان ما امتنع عن فعله ذلك المساعد الأحمق البارحة.

- يا أبيض!

- يا قبيح!

بصقا عليَّ هاتين الكلمتين بكل امتهان مع اشتداد حرارة الشمس، لا أمتلك الجرأة للرد عليهما أو الانتصار لنفسي، لكني أعرف كيف أنتقم منهما بالطريقة التي أجيدها باحتراف، سأنقل على لسانيهما حديثًا كاذبًا إلى قائدي وهو من سيرد لي اعتباري بدون معرفة منه، أحيانًا نحتاج أن نستخدم الآخرين لتحقيق غايتنا مع إيهامهم أنهم يحققون غاياتهم.

هؤلاء البشر غريبون بحق، لا يقدرون النعمة التي هم فيها، كيف لا يتنزهون عما يسيء إلى لونهم الملكي النقي؟ لماذا يحاولون دائمًا إثبات أنهم لا يستحقون هذه الهبة العظيمة التي حصلوا عليها بدون

تعب، نحن لا نختار الصورة التي نولد بها لكننا نمتلك الاختيار الكامل فيما نريد أن نكونه؛ وأنا اخترت أن أكون نبيلاً يقدم كل جهد ممكن في سبيل الحفاظ على أمن هذا الوطن من خلال مساعدتي للقيادة في قمع أي عملية معادية.

لا أدري لماذا أشغل نفسي بهم هكذا؟ فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم، مهمتي تقتضي أن أنقل كل ما تقع عليه عيني أو يتسرب لأذني طوال اليوم إلى سيدي القائد وما عدا ذلك لا يعنيني ولن ينفعني في شيء.

الشمس بعد هطول الأمطار تكون مزعجة للغاية؛ ربما تحاول تذكيرنا بحرارتها وقدرتها على تعكير الأجواء الباردة الحلوة، إنها تشبه أولئك الذين يذكروني باستمرار بأنهم سود وأنا أبيض؛ لأنهم يخشون أن أشكك في أفضليتهم، لعلهم يشعرون بالضعف ويتوهمون أني أنافسهم على السمو والرفعة مع أني لا أشكَّل أي تهديد على حشرة صغيرة فكيف يُعقل أن أكون مصدر رهبة لهم؛ أنا أقل من مجرد التفكير في الأمر، فما بالك بتنفيذه!

- ابتعد عن طريقي أيها النكرة!

هذا بغيض آخر يتعامل معي بفوقية، لا بد أن ينال عقابه أيضًا، لقد مللت الصمت عنهم منذ أول يوم لي هنا قبل شهرين، سأجعلهم يندمون على كل إهانة تتعلق بلوني، أقسم إني سأفعل ذلك، ولن أشفق على أيٍّ منهم؛ جميعهم جناة ولا أحد بريء في هذه المدينة كلها.

- وأصمٌّ أيضًا.

رفعت رأسي إليه ورمقته بعينين يفوح الشر منهما؛ فوطأ وجهي بحذائه الجلدي الممزق وواصل طريقه، تبعته بنظراتي فوجدته يتخلص من حذائه الذي وضعه وجهي! أي طغيان هذا الذي يملأ نفسه المريضة؟ أيفعل هذا معي لأني لستُ أسودًا مثله؟! عليَّ النظر إلى النصف المليء من الكأس؛ حذاء رجل أسود لامس وجهي، يا له من شرف عظيم نلته يا إدريس! شرف لم تكن لتحظَ به حتى في أكثر أحلامك جرأة وطموحا.

سيأتي الليل بعد كل شيء وسيداوي جميع الجراحات، وهل هناك من هو بكرم الليل ولطفه؟! تمر ساعات النهار ببطء مضجر كأنها تجرُّ الجبال أو غارقة في كثبان الرمال. في الليل ينخلع الزيف عن الأجساد والأرواح وتصير إلى حقيقتها المطلقة، وفيه نتجرد من كل أعباء العلاقات ونكون أكثر صدقًا وإنسانية! ونغتسل من مثاليتنا المتوهمة إلى فطرتنا السليمة.

(3)

ها هي السماء تمطر الليلة أيضًا كالليلتين الماضيتين، صوت الرعد يخلع القلوب من شدته، والريح توشك أن تقتلع أعمدة الإنارة على امتداد الشارع، كأن الطبيعة تريد التعبير عن غضبها من أفعال البشر التي يندى لها جبين الحياة، يتنافسون في الظلم والكبر والغرور، ليست الطبيعة الغاضبة منهم بل خالقها العظيم، أنا واثق بأنه يستجيب دعائي في يوم ما وسيجعلني أسودًا، ربما استمرار هطول الأمطار إشارة منه على أنه يريد الاستجابة لي، أعتقد أنه سيغسل هذا اللون الذي علق بي وأصير بعدها بجمال الآخرين.

أخيرًا توقف المطر عن الهطول؛ أشعلت سيجارة أبدد بها نوبة البرد التي أصابتني على غير العادة، صداع شديد يكاد أن يفتك برأسي ووهن غريب أصاب جسدي، ما هذه الأعراض الغريبة التي هاجمتني دفعة واحدة؟ اختنقت بالسيجارة الثانية من فرط السعال، وارتفاع في معدل ضربات قلبي، استندت إلى الجدار

وضممت فخذي إلى صدري كطفل تائه يرتعش من الخوف، يبدو أني سأصاب بالحُمى؛ هذا أمر لا شك فيه.

الكثير من الأقدام التي كانت تمر من أمامي بسرعة وأنا مُكبَّلٌ بعجزي وضعفي، لم ينتبه لوجودي أي أحد كأني سراب أو جزء من هذا الرصيف، ما زالت الريح في صراع دامٍ مع الأعمدة الحديدية التي لا أظن أنها ستصمد مدة أطول، انفجرت صاعقة في شجرة زينة تقع في الناحية الشمالية من مكتب البريد الواقع في آخر الشارع عن يميني، اشتعلت فيها النار وصنعت منظر ساحرًا خفف عني بعض ما أجد.

تحاملت على نفسي ونهضت متجهًا إلى المعسكر، مشيت مترنحًا من فعل الحمى في الوحل، لحسن الحظ أني لا أنتعل حذاء وإلا كنت زلقت، اضطررت للمرور في السيل الذي قطع الطريق ويصل إلى منتصف الفخذ، يجب أن أصل في الوقت المحدد حتى أتمكن من دخول المعسكر وتقديم تقرير حتى لا أخسر ثقة القائد، لم يسبق أن خذلته من قبل ولن يحدث هذا ما دمت على قيد الحياة، بلغت

الجهة الآخرى والصداع في تزايد مستمر، الأرض تدور بي ولا شيء أستند عليه.

لم أشعر بنفسي إلا في صباح اليوم التالي، كان الوحل يغطي ملابسي وتنبعث مني رائحة غريبة، لحظة واحدة هذه ليست رائحتي وإنما رائحة النفايات المبللولة على مقربة مني، ما زلت عاجزًا عن حمل جسدي والصداع على حاله، تجاهلت كل ذلك ونهضت بما تبقى لدي من طاقة وقررت عدم الذهاب إلى المعسكر، أعلم أني أغامر بخسارة مكانتي عنده، لكنه عندما يكتشف أني فعلت ذلك حتى لا ينكشف غطائي سيكافئني.

أحيانًا لا بد علينا من الارتجال وعدم تنفيذ الأوامر بالحرف، وطالما أن الغاية واحدة فلا يهم ما فعلت حتى تصل إليها، أرجو أن يزول عني هذا التعب سريعًا وأستعيد قوتي الكاملة، هذا الأمر يحتاج سيجارة تعيد الروح إلى جسدي المنهك، يا النحس عبلة السجائر مبتلة! ما العمل الآن؟ يجب أن أتسول ثمنها أو سرقته، المهم هو الحصول على بعض السعادة.

الشوارع موحشة، وأغصان الأشجار طافية في كل مكان، وأعمدة الإنارة منحنية كأنها تمارس طقسًا دينيًا في حضرة هذا الفوضى التي تملأ الأجواء، من أين سأعثر على من سأتسول منه سيجارة أو ثمنها والحركة منعدمة؟ هل من الحكمة لو عدلت عن قراري وذهبت إلى المعسكر؟ لكن ماذا لو شاهدني أحد؟ حاولت مدافعة القيء لكني لم أستطع! لماذا لونه أخضر هكذا؟ لم أتناول شيئًا بهذا اللون في اليوم السابق، هل يُعقل أن أكون مصاب بداء ما؟ هذا مُحال فأنا اختيار مستحيل لأي داء؛ إذ ماذا سيجد في شخص أبيض مثلي؟!

السماء ملبَّدة بالغيوم الرمادية، والمدينة خاوية تمامًا كأن طاعونًا قضى على الجميع في بيوتهم ولم يبقِ منهم أحدا، سكون غريب يغلِّف كل شيء، ربما هو السكون الذي يسبق العاصفة!

وصلت إلى مكاني المعلوم واستلقيت بانتظار ظهور أي إنسان، غلبني النوم من الإنهاك والحُمى، استيقظت على صوت أعمال الصيانة لأعمدة الإنارة المعطوبة بفعل ريح البارحة، كان المقهى أمامي

شبه فارغ إلا من بعض مرتاديه المعدودين بأصابع اليد الواحد، لم تكن الوجوه واضحة تمامًا لي؛ لأني لا أستطيع فتح عيني بصورة طبيعية بعد، أعتقد أني بحاجة إلى طبيب أو علاج خافض للحرارة، أحس بغليان في رأسي، وأشواك في حلقي تعيق ابتلاع ريقي بسهولة.

خيالات كثيرة تحيط بي ولا أعلم من أين أتت، ترى هل حانت لحظة ترجُّلي عن الحياة واختارني الموت لأصير خليله؟ الحرارة المنبعثة من الإسفلت وانكماش الفيء الذي أجلس فيه يزيد من معاناتي، ما كان ينقصني إلا نوبات السعال التي توشك أن تجعلني ألفظ أحشائي، على حجم ما أنا فيه الآن إلا أن السعادة تغمرني من الداخل؛ لأن ما أنا فيه دليل لا يدعو للشك بأني ما زلت على قيد الحياة ولم أمت بعد كما كنت أعتقد من قبل.

لكل شيء نهاية ولا بد أن أتخلص من هذا الوهن، أعتقد أني بحاجة إلى الذهاب إلى القائد؛ هو وحده من يقدر على معالجتي، ربما يأمر بجلدي أو جعلي أزحف عاريًا على الحجارة الحارة، أو جعلي أغتسل ببول بعض الحيوانات، صحيح أنه يحدث أن طلبت منه

أمرًا مشابهًا، لكني أثق بقدرته على مساعدتي وعدم امتناعه عن ذلك، إنه أعظم إنسان عرفته في حياتي، يكفي أن له فضل الاعتناء بي مذ كنت صغيرًا.

انتظار الأشياء يجعلها بعيدة الحدوث، ويكون الوقت أبطأ من تدلل السلحفاة فوق سطح أملس، ما زال النهار في منتصفه والليل لن يحل إلا بعد أن أذبل تمامًا، ألا يوجد بصير من هؤلاء فيعرف أني أحتضر ويهب إلى نجدتي، لكن ما الذين يجعلهم يفعلون ذلك فهم يرون أني من بني جنسهم، أنا نكرة غير مُرحب بها! اللعنة على المرض الذي جعلني بهذا الضعف مفتقرًا إلى عطفهم ولطفهم!

أتمنى لو يعود بي الزمن إلى ما قبل الليلة الماضية حتى أقول للقائد أن جميع أهل المدينة يتآمرون على أمن البلاد ويريدون أن يعبثوا بهيبة الدولة؛ لو كنت فعلت ذلك لحققت انتقامًا رائعًا منهم، لكن هل سيغفر لي غيابي البارحة وسيصدق ما آتي به من أخبار؟ أجزم أنه سيأمر بنتف شعر لحيتي شعرة شعرة وسيقول: أوامري لك تقتضي حضورك كل ليلة إلى مكتبي في المعسكر تحت أي ظرف.

ماذا لو كان القصد من هذه الأوامر أن يطمئن عليَّ كل ليلة قبل أن يخلد إلى النوم؟ هذا يعني أنه بات مؤرقًا البارحة من فرط قلقه عليَّ! ها أنا ذا أهذي من جديد! محال أن يكون الأمر كما خطر لي الآن.

الفراغ الكبير الذي أحدثه غياب أبويَّ وتخليهما عني جعلني أعيش ضياعًا لم يجربه أحد من قبلي ولا من بعدي؛ وهذه الحمى اللعينة نبشته في التوقيت الخطأ، لا يجب أن أضعف الآن لأني على وشك الحصول حلم حياتي بأن أصير رجلاً أسودًا، لقد رأيت ذلك في أحلامي أكثر من مرة؛ والأحلام المتكررة إشارة من السماء بقرب تحقق الأمنيات، هذا ما سمعته من أحد المارة وهو يتحدث إلى طفله الصغير.

## (4)

الجوع يعوي في بطني كذئب مخذول من أقرب رفاقه، ألا يتفضل هؤلاء المقيتون ببقايا طعام لي؟! اللعنة عليهم جميعًا فقد أخذوا من صفاتنا الذميمة وتجردوا من مكارم الأخلاق التي يتحلى بها السود! لا أدري ما الناموس الكوني الذي اقتضى بأن تكون أفضليتهم على أساس اللون الموروث هم يبذلوا أي جهد حقيقي لينالوا مزية الحصول عليه؛ لو كان الأمر منوط بالجهد والتمني لكنت أحلك القوم سوادًا لكنه ليس بذلك وهذا ما يجعلني أحترق لرؤيتهم يتنعمون وأنا أقاسي الجوع والمرض، لا أحد يرأف بي أو يلقي حتى نظرة خاطفة عليَّ.

لظى الظهيرة يجهز على ما تبقى مني؛ تُرى ما الجرم الذي اقترفته حتى تتكالب الطبيعة عليَّ بهذه العدوانية والمكر، بت أشك في وجود العدالة الكونية؛ أليس من العدل أن أحصل على بقايا الطعام كالطيور والحيوانات الضالة؟! وأن أتطبب عندما أصاب بالمرض، نحن أيضًا نمرض ونجوع ونخاف مثلهم، ألسنا مخلوقين من أصل

واحد جميعًا! صحيح أني لا أدري بماهية هذا الأصل لكني أعرف في قرارة نفسي أننا ننتمي إلى شرنقة واحدة.

هكذا يحدث للأوراق اليابسة التي تتخلى عنها أشجارها مثلي، كأن لم أكن فرحتها لحظة اخضراري ذات حُب يانع، الانجرار وراء حيوانية الجسد يجلب الوبال على صاحبه ويذيقه الويلات، لكنهما يذوقا شيئًا من الكأس التي ملأها تجرعتها بمفردي وحملت وزرهما على ظهري حتى احدودب، هل توهم الدود موتي حتى أخذ ينهش في جسدي؟ أم أنه يريد أن يريحني من عناء هذا الحمل الثقيل الذي ما عدت أقدر على حمله؟

- أنت لا تنتمي إلى هذا المكان!

ها قد عاودتني الهلاوس من جديد لكن هذه المرة الصوت أكثر وضوحًا، هل ما أسمعه مجرد وهم أم هنالك من يريد العبث معي، يقول إني لا أنتمي إلى هذا المكان، عن أين مكان يتحدث بالضبط؟ هل يقصد الرصيف أم المدينة أم الحياة؟ أليس من الواجب على هذا الصوت اللعين أن يوضح مراده بوضوح؟ أم أنه مشارك في المؤامرة

التي تُحاك ضدي ويريد تشتيتي لا أكثر؟ ما عدت أفهم شيئًا وما عادت بي طاقة لإعمال عقلي حتى أفهم. كيف أستوعب كل هذه الأحداث والأحاديث المختلطة وأنا خاوي البطن، عليل البدن؟

- لا تستلم لضعفك.

يا إله السماوات ساعدني في التخلص من هذه الأصوات التي تكاد أن تصيبني بالجنون، إذا لم ترد أن تمنحني أمنيتي الوحيدة حقق لي هذا الرجاء، لا طاقة لي بالمزيد؛ خلصني من كوابيس يقظتي ومرضي اللعين، أشعر كأني مثبت إلى أحد أسرَّة الإنعاش؛ ليتني كذلك! على الأقل حينها سيُعتنى بي، يا لي من بائس! مع حالتي هذه ما زلت أحلم أحلامًا سعيدة، حري بي ألا أنجرف خلف الوهم الذي يطلقون عليه اسم (الأمل) على ما أظن، لستُ بحاجة للأمل؛ بل أنا محتاج إلى الدواء! الدواء فقط لا أكثر.

أخيرًا سأشعر ببعض الراحة! الليل الحبيب أقبل في ثياب العُرس مزهوًا متدللاً كأنه ملك في موكب مهيب! أتى من سيستر ضعفي واحتضاري فاقتي وانكساري، جوعي وحيرتي وقلقي، أتى من لم

يسمح للخيبة بأن تتسلل إلى روحي خلسة، آه ما أجمل الليل وهو يكسر شوكة الألوان ويصبغنا بطُهر سواده البهي، ويشجينا بسكونه الندي، فيه أتجرد من كل أوزاري وأعود طفلاً لا يفكر في شيء، ما هي إلا ساعات قلائل وأخرس الجلبة التي تحدثها بطني.

الطرقات متكدسة بالصرخات المكتومة والدموع المدرارة، يا للبشر وظلمهم وطغيانهم، لم يتركوا شيئًا للوحوش؛ فقد أجادوا أدوارها بكل إتقان! لا صوت يُسمع بعد منتصف الليل إلا الخيبة التي تصيح كأنها غول، جميعنا خاب أمله في أحد ما، أما أنا فخيبتي عميقة في روحي؛ ولا خيبة إلا بعد ثقة، وأنا وثقت بأبي مُذ كنت ماءً فيه ثم وثقت بأمي تسعة أشهر كاملة، لكنهما لم يكونا على قدر الثقة، ثم وثقت بجسدي الذي نبت من الغل والحقد والضغينة حتى صار كالصخرة العظيمة وها هو الآخر يخيب آمالي فيه.

الآن أدركت فقط أني لست الوحيد الذي يتجرع مرارات الجوع والنبذ في هذه المدينة، هناك كثيرون متناثرون في كل بقعة، في الأسواق، والأزقة الضيقة، وبجوار دكاكين الصرافة التي يزيد عددها

كل يوم، وعند المستشفيات، وعند دور العبادة، وقرب حاويات النفايات، أيقعل أن يكون عددنا يوازي عدد سكان المدينة الآخرين؟ ربما نحن أكثر منهم بكثير لكننا نفضل البقاء في الظل.

الشيء الوحيد الذي يفضلني به هؤلاء التائهون أن بشرتهم سوداء فاتنة! حتى الذين يعيشون وضعًا قريبًا من وضعي يختلفون عني اختلاف السماء عن الأرض. لحظة واحدة أيعقل أن تكون لديهم مهمة سامية مثلي؟! لا شيء مستبعد فهم موجودون قبل وصولي ولا أحسب أنهم ينقرضون بعدي، لكني لم يسبق أن شاهدت أحدًا منهم في المعسكر أو قُربه! ربما كانوا موجودين لكن لم ألحظهم.

وصلت إلى المعسكر ورؤيتي تضعف شيئًا فشيئًا حتى أغمي عليَّ، شعرت كأنما يجرني أحدهم من قدمي بسرعة فائقة، كنت ما زلت في حالة بين الوعي والغيبوبة ولم يوقظني سوى الماء الذي صُفعتُ به بشدة، نهضت مفزوعًا فوجدت القائد يقف أمامي، هل هو غاضب مني على تغيبي البارحة أم أنه قلق؟ لا أستطيع تبين

الأمر؛ فما زالت الغشاوة جاثية على عينيَّ، أشار بيده إلى إناء صغير فيه ماء وطلب مني شربه، حملته فوجدت فيه مادة بيضاء تحدث ما يشبه الفوران، شربته بنهم بدون أن أسأل عنه؛ أنا أثق بالقائد ولا بد أن فيه هذا المشروب علاجي.

أمرني بالجلوس حتى يبدأ مفعول الحبة الفوارة وتذهب عني الحمى، مضت ساعة ونصف تقريبًا وأنا مستلقٍ على الأرض قُرب مكتب القائد، ولم أشعر بنفسي إلا في صباح اليوم التالي، زال الصداع والوهن الذي كبَّلني يوم أمس وجعلني أقول كلامًا غريبًا لا أعي منها شيئا، لقد كان لهذه الحبة الفوارة مفعول السحر؛ كيف لم يخطر لي أن أتسولها من إحدى الصيدليات؟ بل كيف نسيت أمر النقود التي خبأتها تحت ساعة المدينة؟ لو تذكرتها لتخلصت من هذه المعاناة في وقت مبكر، ولما استسلمت لتلك الأفكار الغبية التي كانت تعبث بي منذ بداية اليوم، صرت إلى شخص آخر لا أعرفه أبدًا، شخص ضعيف لا قيمة له، لكني عدت قويًا كما كنت بل ربما صرتُ أقوى ولن يهدمني أي شيء بعد اليوم.

(5)

لم أكن أتسول نقود الآخرين وعطفهم ولطفهم وابتساماتهم القذرة، وإنما أتسول تجاهلهم وشتائمهم وعصبيتهم وعدوانيتهم؛ فلا شيء يجعلني أشعر بالرضا والسعادة مثل ذلك، أسعى جاهدًا لاستفزازهم ليمنحوني هذه الهبات الرائعة التي تذكرني بطفولتي وتجعل القشعريرة اللذيذة تسري في جسدي كله، هذا فقط ما يشعرني بوجودي.

عندما تحس أنك لا تمثل شيئًا لأحد ما تكون حرًا في تعاملك معه؛ إذ لا يوجد من يقيد انفاعلاتك ومشاعرك وتفكيرك سواء بالسلب أو بالإيجاب، أحمق من أوثق نفسه بعلاقة تحد من توهجه وعنفوانه، لعلي صرت الآن أتفهم أبي بدرجة كبيرة؛ هو لم يُرد أن يصير طائر زينة في قفص مقيت مع قدرته على إرسال أجنحته في السماء كيفما شاء، لقد كان شجاعًا بحق.

لا ينبغي أن أتفهم تصرف أبي المريض وأبرره بهذه الطريقة؛ لأنه مذنب وأنا ذنبه الذي لا يقدر على الفرار من عقوبته، عن أي عقوبة

أتحدث؟ يا لي من أحمق! لا أحد معاقب في هذه الدنيا سواي، اتفق الجميع على منحي هذه المنزلة التي لا ترضى بها خنفساء، هو الجاني وأنا المعاقب، بئسًا لحياة ليس لي منها سوى التنفس والألم! لا أدري لماذا أشغل نفسي بهذا التفكير الذي لا يسمن من جوع، أنا آلة مصنوعة لأداء مهمة محددة ويجب عليَّ ألا أحيد عنها.

الازدحام الذي يشهده ها المقهى غير طبيعي وأعتقد أن المشروبات الساخنة التي يقدمها فيها شيء من الشبهة، كيف لم أنتبه لهذا الأمر من قبل؟ أعتقد أن تفكيري في الأوهام التي تراودني في الآونة الأخيرة هو السبب الذي حال دون تركيزي على هكذا أمر، حركة شفاه الجميع لا تنطق اسم مشروبات غريبة، كلهم يطلب شايًا أحمرَ فقط؛ لا أظن أنه كالشاي الذي أعرفه واعتدت شربه، مؤكد أن مادة خاصة يضيفها إليه حتى يجعلهم يحتشدون في مقهاه معظم ساعات النهار والليل.

ما الحيلة التي ستمكنني من اكتشاف الأمر؟ ألهذا يكشر صاحب المقهى عن أنيابه كلما حاولت الاقتراب أو الجلوس على

أحد الكراسي؟ لكنه لا يعرف أني أعمل عند قائد المخابرات وأنقل إليه الأخبار! أوه نعم هو يفعل ذلك لأن مظهري لا يليق بمقهاه المقدس عليه اللعنة! لن أستسلم من المحاولة أبدًا وسأكتشف سره الخطير في القريب العاجل، أقسم بذلك!

الكلاب تتحرك بأريحية تامة بجوار الطاولات ولا أحد يتعرض لها حتى صاحب المقهى ينظر إليها بوداعة، اللعنة أصارت الكلاب أكرم مني الآن أم ماذا؟! ما الذي تفضلني به حتى يرحبون بوجودها ويرفضون وجودي؟ هل عليَّ استجواب كلب لأجد منه إجابات شافية على أسئلتي؟ ربما لو فعلت ذلك سأكون من حزبها وسيسمح لي بالتواجد في المقهى متى شئت، لكن الكلاب لن تتنازل لبدء حوار معي قبل أن أجيد النباح.

لاحظت انشغال صاحب المقهى بتجهيز بعض طلبات الزبائن فقطعتُ الشارع بسرعة خاطفة وكمنت في مكان قريب سيسهل عليَّ اتخاذ الخطوة القادمة بالاقتراب من المقهى واكتشاف السر الذي شغلني كثيرًا، لم تمضِ سوى لحظات أخذت فيها أنفاسي حتى

شعرت بوخزة في عنقي وعندما انتبهت رأيت يمسك بعصا طويلة ويده الأخرى على أنفه، نظرت نحوه باستغراب ولا فهم.

- ألم أحذرك من الاقتراب أيها القبيح العفِن؟!

قالها وهو يزيد من غرز العصا في عنقي، شعرت كأنها ستنفذ من جسدي لكني لم أحرك ساكنًا، لذة ما بعدها لذة أن تحظى ببعض المعاملة القاسية.

- رائحتك النفَّاذة دلت على قربك من المقهى.

نظرت إليه بعدم اكتراث حتى استفزه ويزيد من غرز العصا، ورددت عليه:

- لم أفعل لك شيء، كل ما أريده بعض الشاي فقط.

- انصرف من هنا قبل أن أرتكب فيك جريمة.

- بهذه العصا؟!

سألته باستغباء.

- اللعنة عليك يا إدريس!

أجابني بغيظ شديد، ثم زفر وأكمل:

- إن لم تغادر هذا المكان؛ فإني أقسم بسكب قدر من الماء المغلي عليك، وسأكون حينها قد خلَّصتُك من هذا العفن الذي لا ينفك عنك.

عندما سمعت سكب الماء عليَّ انتفضتُ من مكاني كأنما أصابتني صاعقة، وركضت متفاديًا السيارات التي تمر بسرعة حتى وصلت إلى الرصيف الثاني حيث أقيم، لقد كان وشيكًا حدوث من أريد لكني لم أستطع الصمود، حتى القطط لا تخاف من الماء إلى هذه الدرجة مثلي، بل إني أشبهها تمامًا، لا لست كذلك؛ لو كنت قطًا لما تعرضتُ لهذا العنف اللفظي من هؤلاء الحمقى.

ليس عليَّ أن أعطي ما حصل أكبر من حجمه؛ فالمهمة الملقاة على عاتقي تتطلب مني صبرًا مضاعفًا في سبيل المحافظة على أمن البلاد واستقرارها، لكن ماذا سأستفيد من هذا كله؟ سواء كانت بلاد مطمئنة أم مضطرة أنا لست سوء هامش غير معبوء بي، أنا فضلة يمكن الاستغناء عني في أي لحظة دون أن يرف لهم جفن أو يهتز لهم

شعور. تشبثي بالوهم الذي يقنعني بأهميتي هو ما يجعلني أستمر فيما أقوم به، وماذا لدى شخص مثلي غير التشبث بالوهم؟!

(6)

لا أدري لماذا اختار لي القائد هذه التنكر الذي جعل الآخرين ينفرون مني! ماذا سيضره لو جعلني سمسارًا أو بائعًا متجولاً؟ ألن يكون ذلك أجدى في استقصاء الأخبار والالتصاق بالناس؟! كنت سأكون حينها أكثر نفعًا له وأكثر خدمة للبلاد لكنه أخطأ في اختياره! أيعقل أن السبب الرئيس في حدوث ذلك هو لوني البغيض والطريقة التي وجدني بها وجهالة نسبي؟ أنفسه فاسدة إلى هذه الدرجة حتى يعاقبني بذنب غيري؟ ويحد من نفعي للبلاد لشيء وقع في نفسه مني؟! لا أظن أنه يفكر مثلما يفكر الآخرون، ولا بد أن لديه أسبابًا وجيهة حملته على هذا الاختيار.

لا أحد يعرف بالحرائق التي تتلظى بداخلي في كل مرة أشاهد أبًا يمسك بيد ابنه الصغير أو يقدم له بعض الحلوى أو الهدايا، صرخات مكتومة تتدافع في حلقي وأمسكها بصعوبة، أتمنى حينها لو أنتزع روح أحدهما حتى تنتهي تلك اللحظات المؤلمة بأسرع وقت ممكن. أكره جميع من يذكروني بما أنا فيه من ضياع وغربة وفقد مهما

بدوت شديدًا غير عابئ بشيء، أنا في النهاية ما زلت أمتلك قلبًا نابضًا مليئًا بأحلام مؤجلة إلى أمد مجهول.

رائحة الإسمنت المنبعثة بفعل أشعة الشمس ترحل بي إلى تلك الأيام التي أجبرت فيها على الزحف جيئة وذهابًا فوق الممر الترابي المليء بالأحجار الصغيرة المدببة، كانت الدماء تتصبب من أجزاء كثيرة في جسدي ولم يسلم سوى ما فوق عانتي إلى منتصف فخذي بسبب السروال القصير الذي كنت أرتديه، أذكر الملامح الجامدة التي كانت تكسو وجه القائد وهو يأمرني بمواصلة الزحف وكلما توقفت لأخذ قسط من الراحة سكب فوقي ماء ممزوجًا بالملح، كنت لحظتها أمسك دموعي بصعوبة حتى لا يرى ضعفي فيزيد من جرعات التمرين الذي ما زلت إلى هذه اللحظة لا أعرف فائدته، سأعرف مستقبلاً إذا بقيت على قيد الحياة.

أجيد قراءة الشفاه بصورة دقيقة ولو لم أكن أمتلك هذه المهارة لعانيت من أجل الحصول على معلومة أو نقل حدث بدون إضافات، صحيح أني أحيك بعض الأخبار انتقامًا من أشخاص بعينهم لكن

هذا لا يحدث كل يوم، كم أود أن أنقل خبر كاذبًا عن تآمر صاحب المقهى مع خلية إرهابية تخطط لسلسلة تفجيرات تسعى إلى استهداف مرافق مهمة في الدولة لكني أجزم بأن القائد سيكتشف كذبي وربما يخفيني في حفرة لا يصل إليَّ فيها أحد وسأخسر ثقته، لا يمكنني المجازفة بذلك وأما عن انتقامي من معاملة صاحب المقهى لي سأدركه عاجلاً أو آجلاً.

يتملكني شعور غريب بالتوجس من استمرار الصراع بيني وبين أفكاري التي بت لا أفهم منها شيئًا، كأني أتأرجح بين العمى والبصيرة، يتضح لي شيء وتنبهم أمامي أشياء، ولا أدري هل هذا أمر عادي ويحدث مع الجميع أم أني في طور التحول إلى مخلوق آخر يختلف عن ماهيتي الأولى في كل شيء، الضباب الكثيف الذي يحجب الرؤية عن قلبي يقلقني ويكبلني في الوقت ذاته، لا أنا متجرد من كل التشتيت المحيط بي ولا أنا إنسان كغيري، أتمنى أحيانًا لو كنت نملة أو ذبابة أو جرذًا -عندما تكبر طموحاتي- ليس له ما يأبه به، لكن ما

الذي يثبت لي أن الجرذان لا تعيش ألمًا يفوق آلامي بمراحل؟! لا أدري.

الالتزام بالتوجيات وتنفيذ الأوامر حصانتي من حدوث أي مكروه لي، صحيح أني لا أخشى الموت بل أتمناه لأنه سيكون خلاصي، عصياني للأوامر سيجعلني أتمناه في كل لحظة دون حدوثه بسبب الجوع والعذاب النفسي الذي سأتلقاه، لو كان الأمر مجرد ضرب أو ركل أو صفع أو صعق بالكهرباء لما اكترثت له، لكني لا أستطيع تحمل الجوع ولا نعتي بالأبيض القبيح، أعترف بأني عبد لا أمل في الارتقاء إلى رتبة الأحرار لكن هذا لا يعني أن يكرروا عليَّ لوني كأني نسيته.

السادسة مساءً لها وقعٌ خاص في نفسي فهي أولى ساعات السعادة والراحة، كلما وقعت عيني على ساعة المدينة وهي تشير إلى هذا الوقت يزداد معدل ضربات قلبي من النشوة وأحس كأنما نبت لي جناحان أستطيع بهما الطيران في الكون كله بحثًا عن المكان الذي يليق بي، حيث لا يكون هناك اعتبار للون والعرق والانتماء، حيث

التعامل مع الإنسان بدون النظر إلى أي اعتبار سوى أنه مخلوق يستحق أن يحصل على حياة خالية من النبذ والتهميش.

كبير هو دين الليل على المهمشين مثلي؛ ففضله يغمرنا بما يغنينا عن كل شيء غيره، يهمس لنا بأنه لن يتخلى عنا مهما حدث، وأنه يتفهم سخطنا على الحياة برمتها ونقمتنا على النظام الاجتماعي الفاسد الذي اقتضى نبذنا كما لو كنا ورمًا خبيثًا يجب التخلص منه حتى لا يأتي على الصحيح من البدن، يشعرنا بالسكينة التي لا نعرف عنها سوى اسمها فحسب، ويتعهد بتطبيب أرواحنا من أوجاعها؛ إن له يدًا لا نقدر على مكافأتها مهما حاولنا ذلك.

لا أشعر برغبة في الذهاب إلى مقر القائد هذه الليلة ليس لعدم وجود ما أخبره به لكن لأني بدأت بالتقزز من هذه المهمة، ثمة شيء في داخلي يحرضني على الصمود على هذا القرار، لكن عقلي يذكرني بالصنيع الذي أسداه لي القائد البارحة عندما خلصني من الحمى، أفبعد هذا المعروف العظيم أتخلى عنه وأخذله؟ لست بكافر للفضل حتى أنسى ما قدمه لي! اللعنة على هذه الحرب الداخلية التي لا

تجعلني أتخذ أي قرار بسهولة! دائمًا تكون ثمة عقبة تحول دون ما أريد.

- طريقك واضح أمام عينيك، كل ما عليك فعله هو سلوكه فحسب.

آه من هذا الصوت! يوهمني أني صرت مجنونًا مع أني بكامل قواي العقلية حسب ما أظن، لماذا يظهر فجأة ويختفي مرة أخرى؟ ربما الأيام الصعبة التي عشتها طوال السنوات الماضية في المخيم المهجور من المعسكر والتدريب الخاص الذي كنت أتدربه هو السبب الرئيس في سماعي لهذه الأصوات! لكن لماذا لم أسمعها إلا هذا اليوم؟ هل هناك ما ترغب بإخباري به أم ماذا؟ ولنفرض إنها تريد ذلك، لماذا إذن تختار الجمل الغامضة والسياقات غير المفهومة؟ ألم يكن بإمكانها أن تتكلم بجمل واضحة لا تحتمل أي تفسير أو تأويل؟!

- أنت تبتعد كثيرًا عن هدفك.

المصيبة أن الصوت مألوف وليس غريبًا عني، هل هذا ما يطلقون عليه اسم القرين أم هو شيء آخر؟ أنا لا أفهم كثيرًا في مثل

هذه الأمور المعقدة؟ لكن ما أعرفه أني الآن في ضياع تام، وهذا الصوت الذي يزعم أنه يساعدني لا أرى منه سواء تكثيف المعاناة، ومنعي من اتخاذ القرار.

## (7)

لم أدري كيف تخاذلت وذهبت إلى المعسكر، لكن طريقتي في إطلاعه على التقرير كانت هذه المرة أكثر إهمالاً وبدوت كأني مخمور أومُخدَّر، رأيت العصبية على وجهه كأنه نار موقدة، غير أنه لم يقم بأي رد فعل عدوانية، صحيح أنه ثقبني بنظرة أقسى من السهم لكنه اكتفى بها فحسب. نجوت هذه الليلة وتمكنت من مغادرة المعسكر بدون أي أضرار، لكن لا أعتقد أنه سيغفر ذلك لي وأظن يدخر هذا الموقف لوقته المناسب، لم أقدر ولا مرة على فهم طريقة تفكير القائد، تحيط به هالة من الهيبة التي تمنع الكثير من التمادي معه وفتح حديث.

أتساءل عن إمكانية التقائي بأبي ذات يوم وعن ردة فعلي إذا حدث ذلك؟ لست متأكد من قيامي بأي تصرف عدواني على الرغم من الحقد الذي أحمله عليه، لكن أعتقد أني سأضعف وأحتضنه بحرارة، سيحملني الطفل الذي ما زلت أحتفظ به في داخلي على الإقبال عليه بصورة جنونية لأعوض شوق السنين الماضية، لا

أكذب إن قلت برغبتي بأن أنادي القائد (يا أبي)؛ فهو الوحيد الذي تربطني به ذكريات منذ فتحت عينيَّ في الدنيا، لم تكن ذكرياتي معه سعيدة، لكن شعرت برابطة عميقة تجمعني به.

ماذا لو كان القائد هو أبي فعلاً وأمي هي التي غدرت به وهربت ولم تترك أي أثر خلفها حتى لا يعثر عليها؟ والقصة التي رواها لي بشأن عثوره عليَّ في زقاق ضيق ما هي إلا محاولة أخيرة للحفاظ على ما تبقى من هيبته، هذا احتمال وارد جدًا وإلا كيف أفسر نظرة القلق في عينيه عندما كنت أصارع الحمى؟ هل كان قلقًا لحظتها؟ لست متأكدًا لكن ثمة شك يتزايد في داخلي بشأنه، ولو صدق شكي فإني لن أسامحه أبدًا على جميع اللحظات القاسية التي مررت بها وهو يشاهدني بصمت.

يبدو أن ضوضاء الأفكار ستحول دون حصول على غفوة فضلاً عن حصولي على نوم هانئ، كلما تخلصت من فكرة تومض أخرى من العدم كأنهن تعاهدن على إفقادي صوابي هذه الليلة، ليتني أصاب بالخرف في أقرب وقت حتى أتخلص من العذاب الذي

التصق بي منذ أول لحظة لامست الأرض، ربما سأمتلك الجرأة في ذات يوم وسأصرخ في وجه الجميع بدء بالقائد بأني لن أسمح لأي منهم بإهانتي والتقليل من شأني، حتما سيأتي هذا اليوم.

رائحة الخمر المنبعثة من الزجاجات المتناثرة عن جانبيَّ قرب هؤلاء السكارى سببت لي دوارًا، أعتقد أنها أتت في الوقت المناسب؛ فربما يُغمى عليَّ بسببها وأحظى ببعض النوم، أحيانًا نضطر إلى الاستعانة بأشياء لا نستسيغها لتخلصنا من فوضى عقولنا وقلوبنا، لا بأس بشيء من المحظور إذا كانت الغاية نبيلة، يا لسخرية الأقدار! إدريس العبد الأبيض الحقير المنبوذ يشرع قوانين جديدة تتماهى مع رغباته وحاجاته، لم يعد الأمر حِكرًا على فئة معينة وجميعنا نصلح للتشريع، وهذه أيضًا من الأوهام التي تملؤني من أدناي إلى أعلاي.

- أريد رشفة؟!

سأل أحدهم وهو يمد زجاجة تفوح منها رائحة خانقة، فأشحت بوجه عنه وأجبت:

- أبعدها عني؛ فإن رائحتها لا تطاق.

- دعنا لا نتحدث عن الرائحة؛ لأنها لا تساوي شيئًا مقارنة بك، يا رجل لم أعد أشم رائحة الخمرة منذ اقتربت منك!

تجاهلت كلامه واستلقيت؛ إنه يبالغ بالتأكيد فلا يعقل أن يكون محقًا فيما قال، فهو في النهاية غائب العقل، لا أدري لماذا أعطى أمثال هؤلاء أكبر من حجمهم، مؤكد أنه يشعر برفعة عليَّ بسبب لونه أو قبيلته، لكنه أوضع من أن يتفاخر عليَّ لاسيما وهو في هذه الحالة؛ من وضعته خطيئته ورذائله لا يرفعه نسبه، ها قد صرت حكيمًا بعد كل شيء، غير أني ما زلت على الحالة نفسها بدون زيادة أو نقصان، ما زلت تائهًا منبوذًا مُستضعفا.

ها هو النوم يأتي أخيرًا بخطوات بطيئة، أخيرًا سأخلع ثوب التعب والهم عني وسأبقى عاريًا تمامًا من التفكير في الدنيا، ليتني أمتلك خيار النوم بدون ثياب حتى أوثق عللاقتي بالأرض وتتعرف على جسدي أكثر ربما حينها ستنصفني وترى أني لا أختلف عن الآخرين، لكني أخشى إذا فعلت ذلك من الصلب أو الشنق على الجدار الذي اعتدت الجلوس تحته، سيعتبرون تصرفي ضربًا من

الاستهانة بالأخلاق التي يتغنون بها ليل نهار ولا يطبقون منها شيئًا، سأكون حينها كافرًا بالقيم التي تربوا عليها وكأنما قضيت حاجتي عليها.

استيقظت بنشاط غير معهود ربما يعود الفضل إلى الرؤيا الغريبة التي زارتني البارحة، رأيت أني أقود ثورة كبيرة تتسبب في هز أركان نظام الدولة، لا أدري كيف جرؤت على فعل ذلك، عبد أبيض يغير نظام اجتماعيًا وسياسيا نشأ قبل مئة عام يا لها من طرفة سيئة! مجرد التفكير فقط في هكذا أمر يجعلني أرتعش وأتبول في ثيابي، لا يعقل أن يحدث شيء مشابه مني؛ لأن ولائي واضح وثابت ولا أفكر في تغييره.

لكن ماذا لو تحقق هذا الحلم فعلاً؟ هل كنت سأصير حديث البلد وسأحظى بمنزلة رفيعة؟ ربما أصير علمًا يشار إليه بالبنان ومثلاً أعلى للآخرين، لكن السؤال الأهم هو من سينضم إلى ثورة نكرة أبيض لا يُعرف له أب أو أم؟ أشك في انضمام المهمشين إليَّ فضلاً عن انضمام غيرهم، غالبًا كنت سأستعين بالذباب والنمل والخنافس

والبعوض، يا له من جيش عظيم يصلح لاحتلال العالم كله لا مجرد مدينة كهذه فقط.

صوت أبواق السيارات المتداخلة تعيد لي ذكرى أليمة أحاول جاهدًا نسيانها، ذكرى الحريق الذي نشب في مخزن الطعام في المعسكر عندما كنت في السابعة من عمري، كنت حينها أنظِّف بالداخل بناء على أوامر القائد، وبلمح البصر رأيت النيران تحيط بي من كل جانب ولا يوجد أي أمل في نجاتي، شعرت بالاختناق من الدخان الكثيف الذي يملأ المكان وبسببه كانت صرخاتي متعثرة؛ لأن السعال يمزق كل صرخة إلى قطع صغيرة، آخر ما سمعته لحظتها قبل غيابي عن الوعي أصوات سيارات الإطفاء التي لا أدري كم كان عددها لكنها على حد علمي تجاوزت الثلاث بسبب الأصوات المتداخلة التي سمعتها، نجوت من تلك الحادثة بأعجوبة وظلت تطاردني لسنة كاملة حتى ألهيت عنها بالتدريب القاسي الذي كنت أخضع له.

التجارب القاسية التي يمر بها المرء تصنع منه جبلاً شامخًا لا تهزه الرياح العاتية، وأنا جبل شكلاً مضمونًا؛ إذا أن جثتي الضخمة تعطي انطباعًا أوليًا عني بالقوة والصلابة بل وقذف الرعب في قلوب الآخرين، لكني من الداخل أرق من النسيم وأضعف من الطفل الرضيع، ولو لم أكن كذلك لما كانت هذه حالتي ولكنت شخصًا ينتزع حقوقه من فم الأسد الجائع دون أن يرف له جفن، لكن لأني جبان ضعيف تجرأ عليَّ كل من لم يرق له مظهري كأني الذي اخترته وكلي اقتناع به، بيد أن الحقيقة تختلف تمامًا عما يتوهمون، ولو كان بيدي لمزق جلدي واستبدلت به لونًا أكثر جمالاً ورقيًا.

الحياة لا تُنال بالأمنيات والتردد وأنا أكثر من يتصف بهاتين الصفتين، لا أجرؤ على اتخاذ قرار صارم بشأن تغيير حياتي، ربما لأني أخاف الفشل وربما لأني أستكثر السعادة على نفسي لكثرة من عشت من بؤس وتعاسة واقتنعت اقتناع شبه تام أن هذا هو قدري وليس باستطاعتي تغييره.

المدينة مكتظة اليوم بصورة مزعجة؛ هكذا هي دائمًا في منتصف الأسبوع، لو أتيتُها لأول مرة في هذا اليوم لتوهمت بأن أسواقها لا تكون مفتوحة إلا فيه وباقي الأيام ينشغل أهلها بالعبادة منعزلين عن أي شيء آخر، كنت أجلس ساعتها في قصري -انحصر في بقعة لا تكفي سوى لقضاء الحاجة واقفًا- متأملاً ما يحدث أمامي بكل تركيز لعلي أجد من أفرح به القائد مساءً وأحصل على مكافأة، وبينما أنا كذلك حتى توقفت بالقرب مني سيارة عسكرية وانطلق الجنود منها ناحيتي كالشُهُب فكبلوني ثم أصعدوني صندوق السيارة.

(8)

لا تقتصر مهمتي على نقل أخبار الناس إلى القائد فقط، بل لدي واحدة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى وهي تعكير الأجواء على المساجين؛ إذ يتم وضعي في الزنزانة التي تعج بأعداء الأمن الوطني، مجرد وجودي في مثل هذه المكان يشكل عذابًا نفسيًا للجميع ويساعد في سرعة اعترافهم حتى لا تطول مدة إقامتهم معي، ربما يأنفون من مشاركتي المأوى، ألا يتخلصون من كبرهم أبدًا؟!

الجميع منشغلون بأنفسهم وكل واحد منهم في عالمه الخاص باستثناء هذا الشاب الذي تشع الطاقة من عينيه، إنه يحدق بي كأنه يعرفني تمام المعرفة، ملامحه وهندامه يشيان بأنه وجد في هذا المكان عن طريق الخطأ، هذه المرة الأولى التي يملؤني الخوف من أحد؛ لكني أرتعد منه خوفًا وقد علم ذلك من خلال انكماشي على نفسي ووضع رأسي بين قدمي.

اقترب مني برفق وجلس قبالتي بوجه أسود مضيء، لعنت حظي في سري على تواجدي في هذا المكان الآن، النهاية أمامي ولا مفر منها،

نظرت إلى يده التي مدها نحوي فانتفضت من الخوف، هل انقلبت الآية وصرت أخاف بدل أن أخيف؟! ماذا الذي يحدث معي يا تُرى؟ الذي لا يوجد شك فيه أن هذا الشاب ليس بشريًا أو ربما هو بشري بقوًى خارقة! ما هذا الهراء الذي أهذي به؟! منذ متى وأنا أصدق بوجود الأشخاص الخارقين؟!

- أنا أسامة.

قالها ويده ما زالت ممدودة نحوي، نظرت إليه بدون فهم فقال موضحًا:

- أريد التعرف بك! ما اسمك أيها الرفيق؟

ما زالت ملامح الصدمة والخوف تكسو وجهي الباهت، ولساني في رحلة لا رجعة منها حسب ما أظن، ضحك من حالتي وواصل كلامه:

- لا داعي لكل هذا الذي أنت فيه! نحن شركاء في هذا المكان ومن الطبيعي أن تكون بيننا أحاديث.

- لكنك..

- أخيرًا سمعت صوتك، لكني ماذا؟

- لا شيء يا سيدي! لا شيء!

- سيدي!

قالها باستغراب، وأكمل:

- جميعنا سواسية ولا يوجد سيد ولا عبد.

- لكني عبد، ألا ترى لوني؟!

- ماذا الكلام يا... لم تخبرني باسمك!

- أنا إدريس.

- اسم جميل!

أنا واثق بأنه ليس بكامل قواه العقلية، ألا يكفي أنه ظل يراقبني لساعتين متواصلين ومن ثم اقترب مني وبدأ حديثًا معي، وها هو الآن يهذي بهذا الكلام الغريب عن جمال اسمي، لا شك بأنه مجنون وارتكب خطأ في حق أحد ما وجيئ به إلى هنا بشكل مؤقت ومن ثم

سيقلونه إلى مصحة عقلية، قال جميعنا سواسية! أي سخف هذا وأي حماقة؟!

- لماذا أنت ساكت يا إدريس؟!

يبدو أنه لن يدعني وشأني، وأنا مضطر لمجاراته في الحديث.

- ليس لدي ما أقوله.

- لكن أنا لدي.

حدثني عن أشياء لم يسبق لي سماعها من قبل، الاحترام والإيمان والفضيلة والخير وغيرها من الكلمات الغريبة، شعرت لحظتها كأني أستمع إلى لغة أجنبية لا تعنيني في شيء، لغة تحتاج جهدًا مكثفًا للوقوف على معاني مفرداتها، هل أنا بليد إلى هذه الدرجة حتى لا أفهم شيئًا مما يقول؟ استمر في حديثها وعيناه مثبتتان على عينيَّ، لم أستطع الإشاحة ببصري عنها قيد شعرة.

صحيح أني لم أفهم شيئًا مما قال لكني شعرت كأن طفلاً رضيعًا يصرخ بألم في صدري، طفل بُعِث من سبات استمر لعقدين من

الزمن، يفتش عن وجه مألوف يجلب إليه السكينة لكنه فشل في ذلك، يا لقسوة هذه الحياة التي تلقي بطفل لا يعرف شيئًا عن الدنيا في زقاق ضيق لا يصل إليه الضوء، إني أرى الآن ما أخبرني به قائدي عن المكان الذي وجدني فيه.

أرى الظلام الذي يفترس الأجواء، ونباح الكلاب يكاد أن يمزق أذني، مشهد اقترابه مني كما حكاه بالتفصيل، لقد كان يمتلك قلبًا كبيرًا وإلا لما فكر بأخذي من ذلك المكان وأعتنى بي جيدًا حتى صرت على الحال العظيمة التي أنا عليها الآن، كل تلك الأحداث أراها الساعة تمر أمام عيني بوضوح شديد بعد سماع طلاسم ذلك الشاب، فكرت في الهروب منه كي لا يزيدني غير أني لم أستطع.

إذن كان خوفي منه مبررًا، لا أنكر أني خفت أن يجعلني أعيش تلك اللحظة التي اغتيلت فيها طفولتي قبل عشرة أعوام عندما ارتكب أحد الجنود خطأ كارثيًا بإداخلي إلى الزنزانة بذريعة إخافتي حتى أخضع لأوامره ولم يكن يعلم أني سأقع فريسة بين يدي مجموعة من الوحوش الذين انتهكوني حتى أُغمي عليَّ من الألم والصدمة،

ذكرى لم أقدر على تجاوزها البتة، وكابوس تشبَّث بمنامتي سنوات لم أذق فيها طعم الراحة، وما زاد الطين بلة التدريبات القاسية التي كنت أتلقاها في المعسكر، حمدًا لله أنه لم يجعلني أعش تلك اللحظة مرة أخرى.

ابتسم لي قبل أن يبتعد عني ويتركني في لجج التيه أصارع أفكاري ومشاعري، لماذا يجب عليَّ عيش هذا كله؟ ألأني لستُ أسودًا مثلهم؟ لكني لم أختر هذا اللون القذر، وليس لي ذنب في حقارة أبي وجُبنِ أمي، لماذا أعاقب على ذنوب اقترفها غيري؟ وجودي أيضًا كان ذنبًا حسبما أظن؛ لو لم يكن ذنبًا لما عشت كل هذا البؤس والظلم والرفض.

غمرتني رغبة ملحة للبكاء لكني صارعتها حتى لا أصاب بثقب آخر في روحي، ليتني أموت وأرتاح من هذه المعاناة! حتى الموت عزيز على أمثالي ولا يأتينا إلا بعد أن يكتفي منا الصمت والصبر معًا، ضقت ذرعًا من كل شيء وأرغب بإبادة الجميع حتى أرمم ندوبي

وأحيي ما صار رفاتًا مني، أرغب بالحصول على سيجارة لعلها تمنحني شعورًا مرضيًا ولو لحظة واحدة فقط.

(9)

صوته يحفر في رأسي بمعول مسموم، يستمر في جعلي أشعر بالضوضاء الداخلية والأرق والألم! الألم الذي لم أكن أعرف شيئًا عنه سوى في طفولتي الأولى صرت أشعر به في هذه الأيام، تُرى هل عقد لي سحرًا أم أصابني بخلل في عقلي أعادني إلى تلك اللحظات التي كنت أتألم فيها وأبكي؟ ليس لدي قدرة على احتمال هذا الصوت المزعج، أرغب بتهشيم رأسي حتى أتخلص منه.

تنفست بعمق وألقيت بظهري إلى الجدار خلفي، ليتني أتخلص من صوته وأعود كما كنت لا أفكر بشيء ولا أخشى أحدا، الأقدام الغريبة تتخطى رجليَّ المنهكتين من حمل جسدي الضخم.

- أنا لا أصدق.

انتبهت لمصدر الصوت الذي كان قريبًا جدًا مني، إنها امرأة في أواخر الأربعينات من عمرها وتقف فوق رأسي مباشرة، نبض لها قلبي بصورة غريبة، التجاعيد التي كانت تملأ وجهها المستدير المليح، وتشقق شفتاها الشاحبان، والحناءة ظهره المدهشة، نظرت إلى

عينيها اللوزيتين فأحسست كأن سحابة باردة أفرغت حمولتها بين أضلاعي. واصلت حديثها لي:

- إنك تشبه شخصًا كان حلمًا جميلاً وصار كابوس حياتي بعد تخليه عني وعني طفلي! طفلي الذي انقطعت أخباره عني منذ عشرين سنة عندما استسلمت لخوفي وتخليت عنه! لم يكن الأمر سهلاً لكني فعلته! هل يعقل أن تكون طفلي الغائب عني؟!

نظر إليها ببلاهة وصدمة في الآن نفسه، ثم ألقيت نظرة فاحصة على نفسي وضحكت بسخرية من كلامها، كيف يُخَيَّلُ إليها أن تكون أمًا لطفل بقبحي وهي تحمل هذه البشرة السمراء النقية؟ لا بد أنها تعاني من خلل في عقلها، نعم أنا واثق بأنها ليست بكامل قواها العقلية حتى تقول ما قالته، لكن لماذا لا تكون على حق وأكون أنا ابنها الذي تحدثت عنه؛ فهي أول شخص يقترب مني من آلاف المارة الذين يشاركوني هذا الرصيف.

لماذا لا تكون تلك الساذجة التي خدعها ذلك الأبيض النجس بكلماته المعسولة ومكنته من نفسها، وعندما اكتفى ووجد بديلاً لها

قذفها إلى مكب نفايته بكل حيوانية؟ ليتني أتمكن من العثور عليه حتى أقتص منه وأذيقه أضعاف ما ذاقته أمي الغبية كل تلك المدة، وما ذقته من هؤلاء الحثالة الذين يرون أنهم أجمل وأفضل وأكمل مني؛ لأنهم يمتلكون بشرة سمراء فقط، كنت جعلته يتمنى أن لم يولد من الأصل.

سخطي على أبي مبرر لأني لم أنل منه سوء هذه العذابات التي أتجرعها بكرة وعشيا، كل المصائب التي حدثت في حياتي هو سببها الرئيس، لو لم يصبني منه سوى غدره لأمي لاستحق بذلك أن يكون عدوي اللدود، لكن الذي يقهرني أني لا أعرف له اسمًا لذا أنا مضطر لتسميته أبي أثناء حديثي عنه، أرجو أن يكون الآن في قعر الجحيم يوقد عليه من سعيرها!

أما أمي وإن كنت أغفر لها بعض الشيء، غير أني لا أبرئها تمامًا؛ فهي شريكة في الذنب الذي ما زال يلاحقني شؤمه حتى الساعة، لو لم تنجرف خلف عاطفتها وشهوتها لما اضطرت إلى التخلي عني ولكنت الآن أستلقي على رجلها وتعبث بشعري كما تفعل باقي

الأمهات، لكني لا أستطيع أن أكرهها ولو بمقدار ضئيل؛ هناك شيء في داخلي يقول أنها تتعذب مثلي وربما أكثر، قلبها محترق من خذلان الشخص الذي صدقته وأسكنته نقطة عميقة فيه، وضميرها يؤنبها على تخليها عني مع معرفتها أني قد لا أنجو، بالإضافة إلى خوفها من عقوبة العلاقة التي مارستها مع أبي.

لم يعد صوت الشاب الذي يدعى أسامة وحده ينهش في عقلي بل أضيف إليه حديث هده السيدة العجوز ومنظرها الأخير وذلك الشاب الغِر يجرها من أمامي متذمرًا تصرفاتها التي تنبئ أنها توشك أن تفقد عقلها إن لم تكن قد فقدته بالفعل، سمعته يقول إنها على هذه الحالة منذ مشاهدتها لحلم غريب مفاده أنها ألقت طفلاً أبيضًا على رصيف مهجور ثم تولت عنه وقلبها يعتصر من الحزن. هل يعقل أن يكون ذلك الطفل في حلم السيدة العجوز شخصًا آخر أم تُراني أنا؟!

لماذا تحاول الدنيا ممارسة هذه الألاعيب معي؟ لو أكن المقصود لم جمعني القدر بها، لا شيء صدفة في هذه الحياة، من نلتقي بهم تربطنا بهم علاقات نبتت منذ زمن بعيد سواء علمنا بها

أم جهلناها، لا أستطيع تجاهل هذا الصوت الذي يهمس في داخلي بأنه يعرفها جيدًا، يحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب، وصوتها أعمق ذكرى تقسم أذناي أنها قد سمعت دفئه آلاف المرات، كونها أمي أمر شبه قطعي؛ إذ كل شيء يثبت هذا الإحساس التي ينبض فِيَّ.

لكن أين اختفت فجأة هكذا؟ أهذا هو الوقت المناسب لهذا الازدحام الفج؟! ألم تكن المدينة شبه فارغة منذ الصباح إلى قبيل حضورها؟! لعلِّي توهمت وجودها وحديثها معي بسبب كثرة تفكيري في كلام أسامة؛ نحن لا نكون بكامل قوانا العقلية عندما يشغلنا أمر جلل، وقد شغلني كلامه بصورة مربكة، أحاول تجاهل الأمر لكني ما ألبث إلا هنيهة حتى أعود إليه بانجراف، حقيقة لا أدري ما الذي أوصلني إلى هذا!

أشعلتُ سيجارة وأطلقت العنان لقدمي لتأخذاني إلى حيثما شاءتا، لم أعد أهتم بالمهمة الموكلة إليَّ من القائد، ما يعنيني الآن هو العثور على نفسي وسط هذا الضوضاء، أريد أن أشعر لمرة واحدة أني إنسان بغض النظر عن لوني الذي صار كابوسي الذي أتمنى أن ينتهي،

لكنه يبدو أنه تعلق بي لدرجة الاستماتة على قربي؛ لذا رأيت أن أتجاهله وأنشغل بشيء آخر، شيء يمكنني من إيجاد نفسي. ما هي نقطة البداية لكي يعثر الإنسان على نفسه؟ هل هي الهروب من الماضي؟ أم التعايش معه؟ أم التحايل عليه؟ صدقًا لا أدري.

وجدت أني لم أبتعد كثيرًا عن مكاني المعلوم سوى بضعة خطوات فقط، هذا المكان يمتلك قدرة فريدة على تكبيلي واستعبادي، لم يكن ينقصني سوى أن تستعبدني رقعة جغرافية يأنف الكلب من الانتماء إليها، هل صارت الكلاب أفضل وأكرم مني الآن؟ أي دركة ألقيت بنفسك فيها أيها المعتوه؟!

- ها قد عثرت عليك!

هل ما أسمعه حقيقة أم إني أتوهم؟ هل هذا صوت ذلك الشاب الذي نفخ الروح في رفاتي؟ وهل أنا المقصود بالجملة الآنفة؟ لن أنجرف وراء أمل زائف؛ إذا لا يُعقل أن يكون يبحث عني، ربما يتحدث إلى شخص خلفي وظننت أنه يعنيني، وربما يكونان شخصان غريبان لا أعرف أحدًا منهما.

- إدريس! لماذا لا تلتفت إليَّ وأنا أحدثك؟

التفت فإذا به يقف خلفي بابتسامته المدهشة، تصنمت مكاني من وقع المفاجأة التي لم يخطر لي أن أحظى بها، سألني عن حالي وطلب مني أن أنضم إليه لنشرب شايًا في المقهى الشعبي الواقع في الرصيف المقابل، تعذرت له بعدم قدرتي على تلبية الدعوة؛ لأني لست مستعدًا بعد لهذه الخطوة، وأني ما زلت أفكر في الكلام السابق الذي قاله لي بين جدار سجن المدينة، هز رأسه وانصرف عني، كنت ما زلت أحاول استيعاب ما حدث، صفعتُ نفسي بقوة لأتأكد بأني لا أحلم وعندما تأكدت كان الأوان قد فات، اختفى هو الآخر مثل ما حدث مع السيدة العجوز، يا مشؤوم طارد للسعادة!

(10)

الاستعداد للعيد الوطني يستوجب مني زيادة التركيز وتحري الدقة المتناهية في نقل الأخبار إلى القائد لاسيما أنهم يتحدثون في مقر القيادة عن حضور رئيس البلاد لاحتفال هذه السنة، هذه المرة الأولى التي أشعر فيها بثقل المهمة وخطرها، كنت أستبسطها في الأيام السابقة؛ لأنها كانت بشكل أساسي تعتمد على خلق حالة من الرعب في قلوب الشعب حتى لا يفكروا ولو مجرد تفكير في إحداث أي شغب يتسبب في زعزعة الاستقرار، لكن الآن لم يعد الأمر يحتمل أي خطأ وإلا خسرت البلاد رئيسها الذي به ينتظم عقدها وبفقده ينفرط العقد.

مقابلة القائد كل مساء تعيد إصلاح ما فسد من عقلي؛ أغادره كأني طفل لا يعرف إلا ما أخبره به والداه ويراه الحق الذي لا ريب فيه، هو أبي وأمي وموجهي ومعلمي، عندما أكون بين يديه أسعى جاهدًا لرؤية ذلك البريق في عينيه الذي يخبرني بأنه راضٍ تمامًا عما فعلته، لماذا أشعر أني هذه المرة أريد أن تنتهي المقابلة بأسرع ما يمكن

حتى أغادر المعسكر إلى مأواي؟ أعتقد أن الغشاوة التي كانت تجعلني أراه بتلك القداسة بدأت تنقشع عن عينيَّ شيئًا فشيئًا، ما كنت أؤمن به من أفكار عن خطر الناس على الوطن صرت أشك في بعضه وأرى أنه بجانب الصواب.

إن السبب الرئيس في هذا التغير الذي طرأ على شخصيتي هو الكلمات التي لم تفارني منذ أن جمعني القدر بأسامة في السجن، لكن الشيء الذي ما زلت لم أفهمه بعد هو ما الدافع الذي جعله يخالف الجميع ويقترب مني متوددًا وليس له أي مطمع في؟ هذا السؤال يكاد أن يصيبني بالجنون، مجرد التفكير فيه يحملني على النفور منه ومما يقول؛ إذ يخطر لي أنه ربما يكون مجنَّدًا لدولة معادية ويريد التأثير عليَّ وربما ضمي إلى صفوفهم ليتغير ولائي وأصير سلاحًا على أهلي، لكني ليس لي أهل في هذا البلاد! أوليس أهل المرء من يأنس بهم ويألفهم ويحتمي بهم؟ إذا كانوا كذلك فليس لي أهل؛ إذن ما المانع في الانضمام إلى أسامة وتغيير ولائي؟ على الأقل سأجد من يصرح بأهميتي.

صرت أفكر -ولأول مرة- في الغد وكيف سيكون حالي فيه، سيحتفلون بعيدهم الوطني لأنهم ينتمون إلى هذه البلاد ويرفلون في خيراتها، أما أنا فلا هذا ولا هذا؛ أنا عبد كما يقول معظمهم وليس للعبد إلا طاعة سيده أو أسياده إن صح التعبير، مهما حاولت إثبات فائدتي لهذه البلاد ستبقى نظرتهم لي نفسها ويستحيل أن تتغير، كيف السبيل إلى حدوث تغيير في أفكار وقناعات تربوا عليها بأن العبد لا يصير حرًّا إلا بموته إذا كان موتًا كريمًا.

- ماذا تفعل عندك أيها العبد؟

لست في مزاج جيد لاحتمال هذا الجندي الأحمق الذي يبدو أنه لا يعرف من أكون، تجاهلت كلامه وواصلت طريقي نحو البوابة الخلفية للمعسكر، يجب أن أقضي الليل بطوله في تقصي الأخبار خشية أن تحاك أي مؤامرة على رئيس البلاد، لم يعجبه تجاهلي له وركض أمامي شاهرًا سلاحه في وجهي، يا له من طفل مزعج! قذفته بنظرة مليئة بالشر جعلته يتيبس مكانه من الخوف، لا أدري لماذا يوقعون أنفسهم في هذه المواقف التي تفقدهم الشيء الكثير من

هيبتهم، لم أرد إخافته لكنه اضطرني لذلك، مررت بجواره ولم يجرؤ أن يحرك ساكنا حتى غادرت وتركته صنمًا لا حياة فيه خلفي.

الجدران تتهامس، والطرقات تهمهم، والنجوم تراقب ما يحدث بصمت، هناك ضوء خافت ينبعث من القمر الحالم، والنسمات العليلة تداعب أغصان شجرة السدر الواقف على الجانب الآخر من الجدار الذي حفظ تفاصيل ظهري لكثرة ما استندت عليه، والأرض تتثاءب من التعب، كل شيء حولي يعبر عن توجسه من يوم غدٍ المشهود، وحدهم البشر الذين لا أسمع لهم صوتًا الليلة على كثرتهم في المقهى المقابل لي، ما أتوهم سماعه منهم هو صوت ارتشاف الشاي فحسب، سأنتظر بزوغ أي حرف من شفاههم؛ إذ ليس من المعقول أن يبقوا صامتين طوال الليل.

تناولت علبة سجائري من جيبي لأنفث شيئًا من عوالق روحي المترسبة، ما هذا الذي وقع من جيبي؟ أوه نعم هذه البطاقة التي نسيت أني أحملها منذ أول يوم أتيت فيه إلى هذا الرصيف، تأملتُ لونها الأحمر الذي أشعرني بالغثيان وهممت بأن أقذفها على

الإسفلت لتنال منها عجلات السيارات وأحذية المارة لولا أني خشيت أن تقع في يد أحدهم وتنكشف هويتي التي سعيت ألا يعرفها أحد باستثناء القائد، حتى الجنود لا يعلمون بأني في مهمة رسمية، هم إنما يسمحون لي بالدخول كل ليلة لأن الأوامر تقتضي ذلك فحسب، ولم يجرؤ أحد منهم أن يسألني يومًا.

- أما زلت تفضل افتراش هذا الرصيف على مشاركتي شرب الشاي؟

رفعت رأسي فوجدت أسامة يقف فوقي، تأملت وجهه الذي تفوح منه الوداعة؛ لا أدري ما الذي يمنعني من الانضمام إليه، أعاد عليَّ السؤال فهززت رأسي بعدم رغبتي التحرك من مكان وأشرت إليه بأن يدعني بمفردي، استغرب تمسكي بهذا الرفض غير المفهوم، لكنه ابتسم لي مودعًا:

- كما تريد يا رفيقي.

رفيقه؟! ما هذه الرفقة التي يهذي بها على مسامعي كلما رآني؟ هل يقصد اللحظات التي جمعتني به في السجن؟! أم يقصد شيئًا

آخر لا أتذكره؟ هذه ما يفعله بي كل مرة، يلقي بي في لجة التيه ثم يمضي في حال سبيله، أعجب من إصراره على جعلي أنخرط في الحياة العامة! أنا متأكد بأن وراءه سر يجب أن أكتشفه حتى أفهم اهتمامه الغريب بي.

الساعة الآن تشير إلى الثامنة والنصف، الأحاديث المملة هي الحاضرة بكل قوتها هذه الليلة، كأنهم فقدوا حسهم المرح والمشاكس الذي اعتدته منهم، هذا الانطفاء المريب يقلقني كثيرًا، منذ متى وهم خافتون هكذا لا يصرحون بنقمتهم على أوضاع البلاد التي كانوا يقولون إنها مترديةٍ؟ هل صاروا أخيرًا مقتنعين بها ولا ينقدون شيئًا فيها؟ لا أعتقد أن ذلك حدث، أجزم بأنهم يحيكون أمرًا خطيرًا يريدون تنفيذه يوم غد.

التغير المفاجئ في تصرفاتهم داعٍ للريبة، ويتطلب يقظة مضاعفة للوقوف على أسبابه، لكن ماذا لو كنت مخطئًا في تحليلي لما أشاهد وأسمع وأتسبب في ظلم أحد؟! أنت تقوم بواجبك فقط يا إدريس؛ لا تدع هذه الأفكار الغبية تضللك. أنت في مهمة خطيرة وعليك أن

تنجزها على أكمل صورة، حافظ على تركيزك والتزم بتنفيذ تعليماتك، لكني أشعر بصوت يصرخ بداخلي بألا أستمر فيما أفعله، وأن أعتزل أذية الآخرين تحت مبررات لا أساس لها من الصحة.

لماذا أحاول التهرب من صوتي الداخلي الذي يؤيد معظم كلام ذلك الشاب؟ ما الذي سأخسره إذا مضيت خلف قلبي؟ أنا لستُ مدينًا لأحد بشيء، لا لقائد المخابرات ولا لأحد آخر، لماذا أواصل لوم نفسي إذا سألتني حياة أفضل كالتي يحظى به الجميع؟ لكن هل هي موجودة فعلاً أم إني سأجازف بوضعي الحالي مقابل وهم لا وجود له؟ لا أعتقد أن ما أخشاه أسوأ مما مر بي! التجربة كفيلة بتأكيد هواجسي أو نفيها؛ لذا سأمضي إلى قدري الذي لا سبيل إلى تجاوزه؛ وإن كان القادم جحيمًا فأهلاً به خِلًّا وفيًّا.

**(11)**

عندما ينتهي هذا اليوم سأنام شهرًا كاملاً من فرط الإرهاق، يوم ونصف لم يغمض لي فيه جفن بسبب احتفالات العيد الوطني، انتشار رجل الأمن في كل مكان أحدث نوعًا من الخوف في نفوس الناس، أليس من المفترض أن يحدث العكس ويشعروا بالطمأنينة؟! ربما سوء العلاقة بين رجال الأمن والمواطنين هو من السبب الرئيس في هذه النتيجة العكسية!

حرارة الشمس شديدة هذا اليوم على غير عادة أيام الشتاء، أشعر برغبة ملحة لتناول فنجان شاي مع سيجارة لكن لسوء حظي المقهى اليوم مُقفل حسب أوامر القائد باعتبار أنه بؤرة الشر ومنشأ المؤامرات التي تمس أمن وسكينة الوطن، لا أدري من أين أتى بهذا الكلام مع أني لم أنقل أي شيء منذ يوم أمس، لعل أصيب بالوسواس القهري وصار يتوهم أشياء لا أساس لها من الصحة، كل هذا لا يهمني الآن، ما يهم هو حاجة للشاي حتى لا أنام؛ فاليوم ما زال في أوله.

مر الموكب مهيبًا أمامي فاضطررت للوقوف حتى لا أتهم بعدم احترامي لموكب فخامة الرئيس وأسحل أو تُسملُ عينيَّ أو تُقطع يدي ورجلي من خلاف كما كانوا يرهبونا بذلك في أول دورة تدريبية أُلحقتُ بها وأنا في الثامنة من عمره حسبما أذكر، لحسن الحظ أن ساحة الاحتفالات بعيدة بعض الشيء عن مكاني المعلوم؛ سأنتظر ابتعادهم ثم أذهب إلى أي مكان قريب يصنع الشاي وأحصل إبريق منه، ربما أضطر إلى استعمال العنف إذا امتنع عن تقديمه لي.

الإرهاق يجعل المرء يرى أشياء غير حقيقة أم تراني أراه فعلاً؟ هل ذلك الذي يجلس في المقهى الشعبي أسامة أم هو طيفه الذي عشش في عقلي وصرت أتخيل وجوده حولي أينما ذهبت؟ شاهدته حتى الآن في أربعة مواضع مختلفة، مرة بجواري على الرصيف ومرة أخرى بجوار ساعة المدينة عندما كنت ألتقط بقايا طعام من على الأرض ومرة ثالثة في الناحية البعيدة من الحديقة وهذه المرة الرابعة! لو كنت أؤمن بوجود المخلوقات الأخرى لأقسمت بأنه منهم، صوت في داخلي يهمس بأن ما أراه ليس الشخص الذي جلس معي

في السجن وأن هذا ليس سوى صورة متخيلة لنفسي بعد أن أصير مواطنًا عاديًا ليس له ارتباط بالقائد، هل حقًا سأكون هكذا؟!

وهذه السيدة العجوز بجواره أيضًا تلوح لي وتطلب مني الانضمام إليهما، أنا عطشان وما أراه الآن ليس سوى سراب كالذي يراه التائه في الصحراء عندما يزيد به التعب والعطش؛ ها قد اختفت السيدة التي توهمت أنها أمي الغائبة وبقي وحده بانتظار انضمامي إليه في أي لحظة! لقد تذكرت الآن أين التقيت بهذا الشاب من قبل، لم يكن أول لقاء لنا بين جدران السجن وإنما قبل ذلك بسنوات عندما كان رفيقي في إحدى الدورات التدريبية! أتذكر أنه أحرق مستودع الطعام عن طريق الخطأ واعترفت على نفسي بأني الفاعل؛ ليس لأنقذه وإنما لهوسي الشديد بالتعرض للضرب والعقوبة، وهو يشعر بالامتنان لي لذلك يرغب بأن يأخذ بيدي لأعيش حياة أفضل، كانت تلك آخر لحظة رأيتها فيها إذ سمعت أنه تركت الدورات التدريبية وأكمل تعليمه، حدث ذلك منذ سبع سنوات تقريبًا، إذن لا يجب عليَّ أن أخشاه؛ فهو يريد لي الخير على ما يبدو.

مضت ساعتان وأنا أقاوم رغبتي في الذهاب إليه؛ لأني أعلم أن مغادرتي لمكاني تعني مغادرة الحياة السابقة بكل تفاصيلها، تصارعني الذكريات والتوجس من الآتي، أشعر كأنَّ ثمة ما يجذبني إلى المقهى، هل سأستطيع الانجراف خلف هذا الإحساس المجهول الذي لا أفهمه لكني منبهر به وأود مجاراته؛ فهو يقول إن اختلافي لا يسمح للآخرين بأني ينتقصوا مني وإنما أن يعترفوا بتميزي، هم لم يتنقصوا مني إلا بعد أن فعلت ذلك بنفسي ومنحتهم الفرصة لممارستها معي.

أدرك أن تخليَّ عن المهمة الموكلة إليَّ وانخراطي في الحياة الاجتماعية سيجعلني أحد الأهداف المستقبلية للقائد وفئرانه، وأعلم أني سأتعرض لرفض عنيف من الجميع؛ لأني أختلف عنهم في كل شيء لكن لا ضير من المحاولة والتغيير، من يدري فربما تكون هذه المحاولة أعظم نعمة أنالها منذ أتيت إلى الدنيا، لقد عزمت أمري واتخذت قراري وليكن ما سيكون، سألحق بذلك الغريب النبيل؛ فالموت على الرصيف الآخر أجمل بكثير من العيش على هذا الرصيف القذر.

مبارك بن جوهر ـــــــ



منذ متى وهم خافتون هكذا لا يصرحون بنقمتهم على أوضاع البلاد التي كانوا يقولون إنها متردية؟ هل صاروا أخيرًا مقتنعين بها ولا ينقدون شيئًا فيها؟ لا أعتقد أن ذلك حدث، أجزم بأنهم يحيكون أمرًا خطيرًا يريدون تنفيذه يوم غد.



مبارك بن جوهر ـــــــ